من وحى المنصورة

الهـــروب من النفس

للأستاذ حبيب الزحلاوى

صديقى الدكتور مبارك

بسواء خُدِعتَ فوقعتَ فى الشرك المنصوب ، أو سولت لك نفسك صيد السمك فى المنصورة ، أو طمعتَ فى سماع أحاديث « الزيات والزناتى » الحلوة وغير الحلوة ، أو طاب لك أن تتزثر فى رفاق ظننت أنه لا يستوى عندهم كلامك المقول والمكتوب ، سواء أكان هذا أو ذاك ، فأكبر الظن عندى أنك فزعت إلى البلد الأمين تنشد المهروب من نفسك ! ! أليس كذلك ؟

للهاربين من نفوسهم قصص وحكايات يمرفها ويضمرها السكير والحشاش والمقامر ، وأيضاً المتسكع فى الطرق ، والضارب فى الفلوات ، والقاعد فى المقاهى ، وكل هذه أنواع من براثن ، وأشكال من أسباب ، يفتعلها المأزوم للخلاص من همه ، فيها الظريف المستملح ، وفيها المجرّح المؤلم

ومن أظرف حكايات الهاربين من نفوسهم حكاية فزع ابراهيم ناجى الشاعر إلى ديوان زميله وندّه الشاعر قسطندى داود كلما استحكمت أزمة نفسه أو افتعلها لها من توهماته وظنونه ، ومن يقرأ أشعار ناجى يرَ مسحة من روح « داودية » شفافة تجلى غمامة الصدر وتبعث الضحك ؟ ولو كنت يا صديقى ممن قدر « عليهم » أن يكونوا عرضة للأزمات النفسية التى يزنها الشاعر بميزان مزاجه وعاطفته وتصوراته ، فعليك بلا توان بواحد من ديوانى شعر الدكتور ناجى أو قسطندى داود فالبرء فى قراءة أشعارهما لا شك مضمون

وحكاية ثانية عن الهاربين من أنفسهم بطلها « العبد لله » فعند ما تنشأنى الناشية وتكون مسبّبها الشيطانة (هى) لا أعمد إلى السكر ، ولا إلى أى سبب يمت بصلة إلى تنشية الواقع بالأوهام ، أو طلائه بالضحك ، بل أتناول كتاباً ضخماً أسميته أنت تجوزاً أو اعتباطاً « ليلى المريضة فى العراق »

وكنت أقلب ، يا صاحبى المبارك ، صفحات كتابك صفحة فصفحة ، وأمعن وأغذ السير معك ، متشوقاً متطلعاً إلى رؤية وجه ليلى المعرضة يصطفق روحها نفسى المريضة ، فكان يجابهنى وجه الحريرى ، أى الصفاح من خدك الأعوس ، فأضحك وأضحك! ولكن سرعان ما أطرح الكتاب جانباً ، وأنطوى على نفسى أستجمع قواى المبعثرة وذهنى المرتكز حيال أمر واحد متكتل تخيوط فى الشوك

لسبب لا أذكره ترفعاً وكبرياء ، وجدت نفسى فى حومة الأزمة الجاثحة تحيط بى الثائرة المجنونة من كل جانب ، تسد على المسالك

تعلقت بكل خيوط الفرج من أضراب ناجى وداود ومبارك وأمين فى قصة سارة ، أطبقت الأزمة على نفسى وألقتنى فى الأسر والعبودية ! وإن من الناس يا صاحبى من يفقدون آخر مزية لهم إذا هم انعتقوا من عبوديتهم.

تذكرت الخدعة التى أوقعك فيها أصحابك ، ووسيلة « صيد السمك » التى حفزتك إلى السفر إلى المنصورة ، فلقيت أنت فيها الوحدة والوحشة وانقباض الصدر فأخذت تصرخ وتئن ! أما أنا فقد صفقت لها طرباً ، فصممت فى التو إلى خداع نفسى ، فركبت السيارة إلى المنصورة ، وصدقت عمداً عن « الزيات » وكافورته ، وألقيت بنفسى فى وهاد الوحدة

حقاً إنه لأمر مروع يا مبارك أن يبقى الإنسان منفرداً فى عتمة الليل عند شاطىء النيل الساجى لا يسمع إلا رشاش الأمواج تقطر من مجاذيف الفلك ، مع من أقامه قاضياً على نفسه ومنفذاً منها بالشريعة التى اشترعها ، ولكنى لقيت الراحة فى الانفراد ليقين صادق منى بقول نيتشه القائل : « إن فى التفرد عواطف تطمح إلى القضاء عليه ؛ فإن لم تنل منه نالت من نفسها وانتحرت »

لم أستسلم لهذه الأمنية بل صممت على الظفر بالعواطف والانتصار عليها

كنت أسقط يا صاحبى فريسة سمكة ليلية حاولت اصطيادى بمنتخلة وحدتى وانفرادى ، والمنفرد كما تدرى ، يمد يده مسرعاً بلا وعى لمصافحة من يلتقى بطريقه ، ولم يصدنى عن مدها سوى